٤١ ـ المصريون المحدثون

شمـــائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الانجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل الثالث عشر — الأعياد

يثير احترام المسلمين للقرآن الدهشة ؛ فهم يحرصون على ألا يكون المصحف أدنى الصدر سواء أكان محمولاً أم معلقاً . ويودعونه مكاناً مرتفعاً طاهراً ولا يضعون فوقه كتاباً ولا شيئاً آخر . ويقولون عادة عند الاقتباس منه : قال الله تعالى في كتابه العزيز . ويعتبرون غير لائق أن يلمس المصحف نصراني أو يهودي أو غير مؤمن بتعاليمه ، ولكن البعض يدفعه الجشع ، وإن ندر ذلك ، إلى بيعه إلى هؤلاء . ومن المحرم أيضاً أن يلمس المسلم القرآن ما لم يكن على طهر شرعي . ولهذا كثر ما يطبع قوله تعالى : (لا يمسه إلا المطهرون) فوق الغلاف . وتنطبق هذه الملاحظات عينها على أي شيء يكتب عليه كلام من القرآن . ومما يستحق الاعتبار مع ذلك أن ينقش على أكثر النقود العربية القديمة كلمات قرآنية أو الشهادة مع أنها سكت ليستعملها اليهود والنصارى مثل المسلمين . ولكني سمعت أن هـذا الإجراء ملوم بشدة

وقد سألت مرة صديقاً مسلماً هل يعتبر التين موافقاً للصحة في مصر ؟ فأجاب : ألم يذكر التين في القرآن ؟ إن الله أقسم به في قوله : والتين والزيتون

لا شك أن المسلمين المحدثين أتقياء إلى حد الحماسة وإنما يعوزهم الثبات ونبذ الخرافات ، ويندر — على ما أعتقد — أن يوجد فيهم ملحدون حقاً . وهؤلاء لا يجرأون على إظهار إلحادهم خوفاً على حياتهم . وقد سمعت عن اثنين أو ثلاثة منهم ارتدوا عن دينهم بمخالطتهم الأوربيين مخالطة طويلة وثيقة . وقابلت ملحداً واحداً كانت له معي مناقشات طويلة . وقد ذكرت عرضاً في الفصول السابقة عادات كثيرة تبين الشعور الديني السائد بين مسلمي مصر . ويستعمل المتسولون في هذا البلد نداءات دينية سأذكر أمثلة منها فيما بعد . ويشبه هذه النداءات صياح باعة الخضر وغيرها . وقد أدهشني هتاف حارس الليل في الحي الذي سكنته أثناء زيارتي الأولى : « سبحان الملك الحي الذي لا ينام ولا يموت » ؛ ويصيح الحارس الحالي في الحي ذاته : « يا رب يا دائم » . ويمكنني أن أضيف أمثلة كثيرة أخرى توضح تدين الشعب الذي أحاول وصفه ، إلا أنه ينبغي أن أقرر هنا أن التدين ضعف كثيراً بين المسلمين ، فإنك لا تنفك تسمع منهم أثناء الحديث معهم مثل قولهم : « إنها نهاية الدنيا ! لقد تردى العالم في الكفر » . ويعتقدون أن حالة المسلمين الآن تدل على قرب النهاية . ويبين ما ذكرت في بعض عقائد الوهابيين على أنها عقائد المسلمين الأولين إلى أي حد كبير حاد المسلمون عن تعاليم القرآن كما بُلِّغت أولاً .

يظهر الرجال — تحت تأثير إيمانهم بالقضاء والقدر — في أوقات الابتلاء صبراً مثاليًا ، وبعد الحوادث المفجعة استسلاماً وتجلداً عجيبين يكادان يقربان من البلادة[1] ؛ ويعبرون عن أسفهم بقولهم متنهدين : « الله كريم » . أما النساء ، فهن على النقيض يبدين حزنهن بالإسراف في البكاء والصراخ . وبينما يلوم المسيحي نفسه بحق على كل حادث مكدر يظن أنه جلبه على نفسه أو كان يمكنه تجنبه ، يتمتع المسلم عند تقلبات الزمان وصروف الدهر بهدوء بال عجيب ، ولا ينفك مستسلماً عند دنو أجله فيصيح : « إنا لله وإنا إليه راجعون » . ويجيب من يستفسر عن حاله : « الحمد لله ... الله كريم » . ولا يمنع الإيمان بالقضاء والقدر المسلم مع ذلك من السعي إلى تحقيق غايته ؛ فإيمانه بالقدر ليس مطلقاً ، ولا هو يجعله يهمل تجنب الخطر ، إذ حرم القرآن ذلك بقوله : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » . غير أنه في بعض الأحوال كانتشار الطاعون وغيره من الأوبئة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين ألا يدخلوا مدينة موبوءة وألا يخرجوا منها . ويختلف المسلمون في جواز الحجر الصحي ، إلا أن عمومهم يرونه غير ملائم

ويجعل الإيمان بالقدر المسلم مجرداً من الادعاء بمعرفة أعماله المستقبلة أو أي حادثة آتية ، فلا يتحدث أبداً عما ينوي عمله أو يتوقع حدوثه دون أن يقول : « إن شاء الله » ؛ وكذلك

(١) وليس المسلمون مع ذلك بلداء كما يرى بعض السياح ، إذ أنه ليس من غير الشائع أن تراهم يبكون ، ولا يخبرون إظهار الشعور هكذا تحتاً ، بل يصورون أبطالهم في قصائدهم وأقاصيصهم ، يبكون عند الحزن الشديد .

عندما يروى واقعة سابقة غير محققة ، يقدم كلامه أو يختمه بقوله : « الله أعلم »

يتمتع المصريون بفضيلتى الجود والإحسان ـ اللتين ينبهما الدين فى قلوبهم ـ إلى درجة عالية . ولكن يبدو من تصريحهم أن انتظار الثواب فى الآخرة يحرضهم على الصدقة بقدر ما تحرضهم الشفقة بينى جنسهم أو الرغبة المنزهة فى القيام بما يأمر الله . ويمكن من بعض الوجوه أن نعزو كثرة المتسولين فى القاهرة إلى ميل السكان إلى الإحسان .

ومن آثار هذه الفضيلة أيضاً إقامة السبل الجميلة التى نراها فى هذه المدينة ، والسبل الوضيعة فى القرى والحقول[1] . كان يسرني كثيراً أول اختلاطى بالمصريين أن أشاهد شفقتهم فى معاملة الحيوان وأن أرى البعض يجمع أطراف ثيابه المرسلة ليتحاشى لمس كلب ، ثم يقذف للحيوان الدنس قطعة من الخبز الذى يأكله . وكانت جرائم القتل والسرقة وغيرها نادرة حينئذ . ولكنى أجد اليوم أغلب المصريين قد انقلبوا إلى الأسوأ فى شفقتهم نحو الحيوان وبنى جنسهم . ويبدو لأول وهلة أن شدة الحكومة المفرطة قد أوجدت فى الشعب البغى والميل إلى الإجرام ، إلا أننى أميل إلى الظن بأن سلوك الأوربيين أفضى كثيراً إلى هذه النتيجة ، إذ لا أتذكر أننى رأيت قسوة فى معاملة الحيوان إلا حيث يسكن الفرنج أو حيث يترددون مثل الإسكندرية والقاهرة وطيبة . ويتقزز المرء من رؤية حمير النقل التعسة فى القاهرة ، فأكثرها مصاب بجروح قرمزية كالياقوت الجرى ، وتمقرها على الدوام حبال غليظة من مسد تربط بظهر البردعة . وكثيراً ما يضرب الأطفال والرجال الكلاب فى الشوارع لمجرد اللهو . وكثيراً ما رأيت أطفالاً يلهون بمضايقة القطط التى كانت محبوبة كثيراً قبلا[2] . وكانت جرائم السرقة والقتل تحدث أسبوعياً تقريباً أثناء الشهرين أو الثلاثة التالية لقدومى الثانى . وكان الحكام الترك يجورون على الفلاحين ولكن بعض هؤلاء منذ خلفوهم على الحكم فاقوهم فى الطغيان . والرأى العام أنهم ألعن من الأتراك[1]

ومع أنى أشاهد الآن على التوالى الكلاب الشريدة تضرب فى شوارع القاهرة وهى هادئة لا تضر ، فلا أزال أرى بعضهم يطعمونها وأغلبهم فقراء . ويوجد فى كل حى من أحياء المدينة أحواض صغيرة تملأ يومياً للكلاب . ويؤجر أصحاب الحوانيت فى شارع واحد سقاء لرش الشارع وملء أحواض الكلاب . ويوجد أيضاً حوض للكلاب عند كل دكان لبيع الشراب . ويمكن أن نذكر هنا أن كلاب القاهرة ، وقلما يكون لها صاحب ، تكون جماعات منظمة مختلفة تقصر كل منها نفسها على حى تطرد منه كل كلب دخيل . وهذه الحيوانات تكثر جداً فى القاهرة . وهى تحرص على العموم أن تتجنب الإنسان كما لو كانت تعلم أن أغلبية السكان تنبذها ؛ ولكنها كثيراً ما تنبح عند ما ترى أحداً يلبس الملابس الأفرنجية . وتضايق المارة ليلاً ، وهذه الكلاب مفيدة لأنها تأكل سقط الذبائح التى يرمى بها من حوانيت الجزارة والبيوت ، كما أن الكثير منها يتردد على أكوام الزبالة حول العاصمة فتقتات مع الصقور من رمم الجمال والحمير التى تنفق فى المدينة . وأغلب الكلاب صهب اللون ، والظاهر أنها تماثل بنات آوى شكلاً وميولاً .

ولا يمنع رأى المسلمين فى الكلاب من الاحتفاظ بها للحراسة وأحياناً للتدليل . وقد حدث منذ زمن قصير حادث غريب من النوع الأخير ، فقد اتخذت امرأة وحيدة فى هذه المدينة ، كلباً يؤانسها فى وحدتها . فاختطف الموت هذا الأنيس الوحيد ، فعزمت المرأة لحزنها وعطفها عليه أن تدفنه كأى مسلم فى قبر لائق فى مدافن الإمام الشافعى المقدسة . فغسلت الكلب طبقاً للقواعد المرعية عند وفاة المسلم وكفنته فى كفن جميل ووضعته فى نعش ، واستأجرت نادبات وأقامت مأتماً حقيقياً . ولم يتم ذلك دون أن يثير عجب

(١) أكبر السبل فى القاهرة ما أقيم فى عهد الترك والمماليك

(٢) أعتقد أن من المناسب أن أذكر هنا أن لدى باعثاً قوياً على الاعتقاد بأن بركهاردت استفهم خطأ حينما ذكر (« فى الأمثال العربية » رقم ٣٩٣) أن الأطفال الشرقيين فى مصر وغيرها يعذبون الثعابين بوضعها فى كيس من الجلد ثم يلقون عليها حجراً يطفئونه بعد ذلك بالماء . ولم أجد واحداً سمع بهذه القسوة . وليس من الممكن أن يجرؤ الأولاد فى هذا البلد على وضع ثعبان فى كيس لأنهم يخشونه كثيراً أو أنهم يغرمون قروشاً كثيرة فى شراء كيس يتلفونه بهذه الطريقة وربما يشير المثل الذى بنيت عليه هذه الرواية إلى طريقة لقتل الثعابين لا اللهو بها .

(١) وكثيراً ما يسمع الفلاح العربى يقول هذا المثل : « ظلم الترك ولا عدل العرب » ويطلقون لفظ « العرب » هنا على طبقتهم بدلا من لفظ البدو الذين يطلق عليهم الآن عادة اللفظ السابق . أنظر بركهاردت « الأمثال العربية » رقم ١٧٦

الجيران الذين لم يستطيعوا معرفة المتوفى ولم يتدخلوا لأنه لم يكن بينهم وبينها ألفة قط . ثم استأجرت المرأة مرتلين ليتقدموا الجنازة وتلاميذ لينشدوا ويحملوا القرآن أمام النعش . وسار الموكب فى نظام مهيب ، وتبعت المرأة والنائحات النعش وهن يعلأن الجو بصراخهن ؛ غير أن الموكب لم يسر كثيراً إذ اجترأت إحدى الجارات وسألت السيدة الحزينة : من المتوفى ؟ فأجابتها : « إنه ابنى المسكين » فكذبتها السائلة فاعترفت الثكلى بأنه كلبها ورجت جارتها الفضولية أن تكتم السر ؛ إلا أن احتفاظ المرأة المصرية بالسر ، وبسر مثل هذا ، مستحيل . فأذيع الخبر فى الحال ، وسرعان ما تجمع جمهور غاضب أوقف الجنازة . وصب المرتلون والمنشدون غضبهم على مستخدميهم ، حالما استخلصوا منه نقودهم ، لأنه مكر بهم . ولو لم يتدخل الشرطة لذهبت المرأة على الأرجح ضحية هياج الشعب[1]

والعجيب أن القطط الشريدة فى مصر تطعم على نفقة القاضى . فيوضع فى الساحة الكبرى أمام المحكمة عصر كل يوم مقدار من سقط الذبائح وتدعى القطط معاً لتأكل . وقد وقف السلطان الظاهر بيبرس على القطط ، كما علمت من كبير كتاب القاضى ، حديقة تسمى « غيط القطط » بجانب مسجده شمالى القاهرة . ولكن هذه الحديقة باعها الأمناء عليها ومشتروها على التوالى . وقد باعها السابقون بحجة أنها خربة فلا تصلح للانتاج إلا بعد نفقات كثيرة . وتستغل الحديقة الآن جكراً بخمسة عشر قرشاً سنوياً تنفق فى إطعام القطط المتروكة . ومن ثم ألقيت نفقة القطط كلها على القاضى بحكم منصبه الذى يجعله حارساً على الأوقاف الخيرية ، فعليه أن يتحمل إهمال سلفه . ومع ذلك أهمل واجب إطعام القطط أخيراً . ويتخلص الكثيرون فى القاهرة من القطط بإرسالها إلى بيت القاضى وإطلاقها فى الساحة الكبرى

ذكرت قبلاً مؤانسة المصريين بعضهم لبعض . وهم يخاطبون الأجانب الذين لا يوافقونهم فى الشمائل والعادات ، ولا يذهبون مذهبهم فى التفكير بأدب يشوبه الجفاء والحذر . وكثيراً ما يظهر المصريون نحو الأجانب وفيما بينهم أيضاً فضولاً وقحاً . وهم يخشون كثيراً أن يجعلوا لهم أعداء فيدفعهم خوفهم هذا إلى أن يؤيد كل منهم الآخر ولو كان فى ذلك جرم . ويعتبر السرور صفة ظاهرة فى الشعب المصرى . ويظهر البعض احتقاراً كبيراً للتسلية التافهة . ولكن الكثيرين يجدون فيها بهجة . ومن الدهش أن ترى المصريين يتسلون بأقل شىء ، فهم يبتهجون حيثما يوجد حشد وضجة وحركة . وتخلو حفلاتهم العامة مما يسلى الرجل المثقف . ويبدو أن الطبقات السفلى تسعد كثيراً بالجلوس فى المقهى للتدخين وشرب القهوة بعد العمل اليومى .

عبد الحميد طاهر نور

(١) يشير دربلو D'Herbelot إلى حالة مشابهة نوعا . وهى أن تركياً احتفل بدفن كلبه العزيز فى حديقته ، فاتهم أمام القاضى بأنه دفن الحيوان طبقاً للشعائر الاسلامية . وتفادى التركى العقاب ، ولعله كان شديداً ، بأخبار القاضى أن الكلب أوصى إليه بقدر من المال . أنظر قاموس "Bibliothèque Orientale" مادة « قاضى » (المؤلف)

وبرتلمى دربلو دملنفيل Barthélmy d'Herbelot de Molainville (١٦٢٥ — ١٦٩٥) مستشرق فرنسى تلقى علومه فى جامعة باريس واهتم بدراسة اللغات الشرقية فسافر إلى موانى إيطاليا للتحدث مع الشرقيين الوافدين إليها استكمالا لدراسته وعاد إلى فرنسا ولم يلبث أن عين ناموساً شرقيا للملك وفى ١٦٩٢ عين مدرساً للغة السريانية فى Collège de France وأهم مؤلفاته القاموس العام عن شعوب الشرق المسمى Bibliothèque Orientale ، وقد أتمه جالند Galland فى ١٦٩٧ وله قاموس آخر فى اللغات التركية والفارسية والعربية واللاتينية لم يطبع (المترجم)

إلى هواة المغناطيسية

وإلى المصابين بالاضطرابات العصبية

ترسل تعليمات مجانية من شرح طرق وتدريبات تعلمك كيف تتخلص من الخوف والوهم والخجل والكآبة والوسواس ومن جميع الاضطرابات العصبية والعادات الضارة كشرب الدخان ومن العلل والآلام الجسدية وفى تقوية الذاكرة والإرادة ودراسة الفنون المغناطيسية لمن أراد احتراف التنويم المغناطيسى والحصول على دبلوم فى هذا الفن اكتب إلى الأستاذ ألفريد نوما ٧١٩ شارع الخليج المصرى بنمرة بمصر وارفق بطلبك ٣٠ مليماً طوابع المصاريف فتصلك التعليمات مجاناً .